



مع ابن كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ^ط وَسُبْحَنَ اللَّهِ
وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين، الجن والإنس، أمراً له أن يُخبرَ الناس أن هذه سبيله: أي طريقه ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى « شهادة أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له » يدعو إلى الله على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي. وقوله: ﴿ وَسُبْحَنَ اللَّهِ ﴾ أي: وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسّه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عدل أو نديد أو ولد أو صاحبة أو وزير أو مشير. تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً.

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
حَمْدَهُ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ^ط إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٢)

أخي المسلم: ذاك ما ذكره الإمام ابن كثير في تفسير قوله: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي

(١) يوسف: ١٠٨.

(٢) الإسراء: ٤٤.

أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ ۖ وَسُبِّحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾

بلاغ للناس جميعاً، بل للجن والإنس، ولا عُذْر بعد بلاغ، ولا حُجَّة بعد إذارٍ وإنذارٍ ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (١)

﴿ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ ﴾ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ، لا إلى غيره، على بصيرةٍ و يقينٍ وبرهانٍ. وذلك ما دعا الرسول ﷺ إليه، ووصى الله به، وجعل الفوز والفلاح فيه، لا في غيره.

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢)

روى مسلم، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ » (٣)

﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ

(١) النساء: ١١٥.

(٢) الأنعام: ١٥٣.

(٣) مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ رقم ٢١٨.

الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١﴾

دعوة إلى الناس كافة، يُدعى إليها على بصيرةٍ و يقينٍ و بُرهانٍ، بعث الله من أجلها الرسل جميعاً بالبينات، وأنزل معهم الكتاب والميزان؛ ليقوم الناس بالقسط، فلا غموض ولا خفاء. فما يدعو الرسول ﷺ والمؤمنون معه هو ما دعى إليه الأنبياء جميعاً، وأقامود ولم يفرقوا فيه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (١)، ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (٢)

إن الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له دعوة إلى الحق الذي قامت به السموات والأرض. دعوة إلى الكلمة الطيبة التي تؤتي ثمارها كل حين استقامة وعدلاً، ورحمة وبراً.. بها يلتقي الناس على كلمة سواء، فلا يعبدون إلا الله مُخلصين له الدين خُفَاء، لا يستعينون إلا به، ولا يتوكلون إلا عليه، ولا يروون لأنفسهم - في بأساء أو ضراء - ملجأ إلا إليه.

إن اليقين بهذه الشهادة، واتباع ما نُوحى طهرٌ للنفس من الشرك والرياء والنفاق، وحصانة لها من اتباع الهوى والفساد، وعزةٌ تسمو بصاحبها عن الدنيا وسيء الأخلاق.

(١) الأعراف: ١٥٨.

(٢) الأنبياء: ٢٥.

(٣) الشورى: من الآية ١٣.

« شهادة أن لا إله إلا الله » التي يدعو إليها رُسُلُ الله جميعاً، والتي أَمَرَ الرسولُ ﷺ أن يُخَبِّرَ النَّاسَ أَلْهَا طَرِيقَهُ وَسُنَّتَهُ، وأنه يدعو بها إلى الله على بصيرةٍ و يقينٍ، جديرةٌ أن يُعْنَى بها الدُّعَاءُ إلى الله في كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ؛ إذ لا استقامة تُرْجَى، ولا صلاحٌ لِحَالٍ يُطَلَّبُ بغيرِ صلاحِ النفوسِ وهدايتها؛ فالنفوسُ الصالحةُ تصلحُ بها الأمورُ الفاسدةُ، والنفوسُ الفاسدةُ تفسدُ بها الأمورُ الصالحةُ، فالإنسانُ أولاً ومن أجله جاءت الهدايةُ، وفُطِرَ على هذه الشهادة، شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وُبِعِثَ الرُّسُلُ الكِرَامُ مُبَشِّرِينَ مَنْ تَمَسَّكَ بِهَا وَأَخْلَصَ لَهَا، وَمُنْذِرِينَ مَنْ جَحَدَهَا أَوْ تَنَكَّرَ لَهَا.

ولا مبالغة في شيء إذا قلنا: إن كُلَّ ظُلْمٍ أَوْ فسادٍ في الأرض مَرْجعه إلى التَّنَكُّرِ لهذه الحقيقة؛ فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ خَشِيَهُ، وَمَنْ خَشِيَ اللَّهَ كَفَّ شَرَّهُ وَقَدَّمَ خَيْرَهُ، وهو يوقنُ أنه راجعٌ إليه، ومُحَاسَبٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، فلا ينشدُ لنفسه في دُنْيَاهِ إِلَّا مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ، أَمَّا الْحَرَامُ فَالْمَمَاتُ دُونَهُ.

وعندئذ تُصَانُ الضُّوَابِطُ وَالْحُدُودُ، ويكون للإنسان من نفسه رادع، وله من خشيةِ رَبِّهِ زاجر، فهو يشهد أن لا إله إلا الله في كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شَأُونِهِ، فلا يذلُّ أَوْ يضلُّ، أَوْ يفسدُ أَوْ يسيءُ، وشهادته له نورٌ و يقينٌ وبرهانٌ، وعِلْمُهُ بِهَا عِلْمٌ يدعو إلى ملازمةِ الإِنَابَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ بِقَلْبٍ وَجَلِيلٍ، وَنَفْسٍ خَاشِعَةٍ، تَخْشَى اللَّهَ وَتَرْجُو رَحْمَتَهُ.

ولا تَسَلَّ عَمَّا يَكُونُ مِنْ أَمْنِ النَّاسِ وَسَلَامِهِمْ مَعَ هَذِهِ النَّفُوسِ، وَلَا تَسَلَّ عَمَّا يَكُونُ فِي حَيَاتِهِمْ مِنْ عَدْلِ وَبِرٍّ.

إن ثَمَارَ الدُّعْوَةِ إِلَى هَذِهِ الشَّهَادَةِ - فِي دُنْيَا النَّاسِ وَأَحْرَاهِمَ - أَكْبَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى أَوْ تُعَدَّ. وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ سَبِيلُهُ طَهَّرَ سَعْيُهُ، وَعَظَّمَ أَجْرُهُ، وَعَلَا ذِكْرُهُ، وَسَلِمَ مِنْ لَوْثَةِ الشَّرِّكَ، وَظِلَامِ الْإِفْكَ.